

## وسام رفيدي\*

### السريان الفلسطينيون وازدواجية الهوية

تعود أصول السريان إلى الآراميين، وقد وُجدوا فيما يُعرف بسورية الكبرى وصولاً إلى الأناضول. والآرامية هي ثقافة ولغة سادات هذه المنطقة طويلاً، وتحدث بها المسيح. والسريان يسمون هم الآراميون الذين اعتنقوا المسيحية، وأسسوا كنائس لا تزال قائمة، وخصوصاً في سورية.

وبينما سلطت الحرب الدائرة في سورية النظر إلى السريان، كقومية، من خلال التشكيل المسلح الذي أنشأوه، وهو "المجلس العسكري السرياني" المنضوي ضمن "قوات سورية الديمقراطية" ("قسد")، فإنه عبر التاريخ وُجدت عدة "ممالك" آرامية: مملكة الرها في المنطقة التي تقع فيها تركيا حالياً؛ مملكة تدمر في سورية؛ مملكة الحضر في العراق؛ مملكة الأنباط في الأردن. لكن السريان في العصر الحديث كانوا دائماً جزءاً من شعوب المنطقة، ولم تبرز لديهم اتجاهات حقيقية لبلورة هيكل قومي.

هذا البحث يتناول السريان في فلسطين، كوجود تاريخي وثقافي ولغوي كان ولا يزال جزءاً لا يتجزأ من الشعب الفلسطيني.

#### تمهيد

كانت التعددية الدينية والإثنية ظاهرة لازمت التاريخ الفلسطيني على مر العصور، وخصوصاً منذ مطلع القرن العشرين، مع قدوم أعداد من الأرمن والسريان والشيشان واندماجهم في التشكيل الاجتماعي والديموغرافي الفلسطيني. لكن هذا التعايش بين القوميات والطوائف والمذاهب

والمجموعات الإثنية، بات اليوم مهدداً بسبب الممارسة السياسية الدموية للتيارات الإسلامية التكفيرية في العالم العربي؛ ولذا، يبدو من المهم إظهار الإمكانيات الواقعية التي تشكلت تاريخياً والداعمة لهذا التعايش، وأثرها الإيجابي في النسيج المجتمعي

\* محاضر في دائرة العلوم الاجتماعية - جامعة بيت لحم.

منطقة بيت لحم، في الكنيسة والنادي، وتوزعوا كالتالي: ٤ منهم من مجتمع البحث (سريان بيت لحم)، وتوزعت العينة على مغنّ معروف، ورموز دينية واجتماعية وسياسية فاعلة؛ شخصية سريانية واحدة من سكان القدس لعقد مقارنة سريعة بين المجتمعين السريانيين المحليين في القدس وبيت لحم. واعتمدت الدراسة أيضاً لجمع البيانات على الملاحظة المباشرة للباحث المقيم جزئياً في بيت لحم عبر علاقاته مع أوساط سريانية، وقد وفر ذلك فرصة كي يشارك السريان ظروف حياتهم ومشاعرهم، بما تسمح به خصوصيتهم، ولتسجيل الملاحظات وجمع البيانات وفق الطريقة المتبعة في الملاحظة بالمشاركة. وأخيراً تم استخدام منهج التحليل السيميولوجي لفهم المدلولات الخاصة بالعلم السرياني الأبرز في رمزيته إلى الهوية الخاصة بالسريان. أمّا على صعيد الإطار النظري، فقد استندت الدراسة إلى منهجية نظرية يتشابه فيها علم الاجتماع مع علم السياسة والأنثروبولوجيا وعلم النفس الاجتماعي، لما لقضية الهوية من تشعبات معروفة تلامس تلك العلوم مجتمعة.

## II - مفهوم الهوية: حد التمايز عن الآخر

تقع الهوية بين حدّي التمايز والصراع؛ ولأن الهوية تأكيد للذات الجمعية، فهي بالضرورة تميز لها من الذوات الأخرى المعبر عنها كهويات، أي الآخر. والتمايز هنا يقتضي بالضرورة النفي كمنقولة فلسفية، فالنفي هنا يعني "أنني ليس الآخر"، وبالتالي

والوطني الفلسطيني. ومن جهة ثانية، فإن المعركة مع المشروع الصهيوني في فلسطين منذ بدايات القرن العشرين، باعتباره مشروعاً استيطانياً استهدف ولا يزال الوجود البشري والسياسي للشعب الفلسطيني ومكونات هويته، هي في أحد جوانبها معركة لتثبيت مقومات الوجود التاريخي للشعب الفلسطيني بمختلف مكوناته، وتأكيد حيوية تلك المكونات.

تتمحور إشكالية البحث الرئيسية حول تلك الركائز التي لا تزال حاضرة في تشكيل الهوية الإثنية السريانية، والمحددات السياسية والتاريخية والثقافية التي وفرت الظرف الملائم تاريخياً لاندماج السريان الفلسطينيين في النسيج الديموغرافي الفلسطيني، كحالة تتميز بفرادتها عن المحيط الإقليمي، على الأقل كما ظهر في تفجر النزاعات العرقية والطائفية في الأعوام الأخيرة على الصعيد العربي، وقدّمت نموذجاً لإمكانات التعايش بين المجموعات الدينية والقومية المتعددة ضمن النسيج الواحد. تحتل اللغة، كما هو معروف، مكانة بارزة، كركيزة من ركائز الهوية الإثنية والقومية، علاوة على الرؤية المشتركة إلى التاريخ والرموز المعبرة عن تلك الرؤية وعن الثقافة الجمعية، والذاكرة بمعناها العام، ولذلك كان التركيز بئناً على تلك الركائز في دراستنا هذه.

## I - المنهجية

استخدمت الدراسة المنهج الكيفي في تحليل البيانات التي تم جمعها عبر آليتي المقابلة المعمقة لخمسة مبحوثين كعينة محددة، والملاحظة المباشرة. وهؤلاء المبحوثون هم أبرز الفاعلين السريان في

والمذهبية، إلى ما هنالك من تعديلات. ويؤكد الأنثروبولوجي كناعنة أن لكل جماعة بشرية "هوية جماعية، وتأتي هذه الهوية على شكل رموز يتماهى معها أفراد الجماعة ويستعملونها للتعبير عن وعيهم بكونهم جماعة مميزة عن غيرهم، ولتعريف الآخرين بأنهم أعضاء بتلك الجماعة" (كناعنة ٢٠١١، ص ٤٤٣). وفي شرحه لطبيعة تلك الهوية الخاصة بجماعة ما، يشدد كناعنة من جديد على التمايز عندما يقول إن الوعي بجوهر الرموز "يُميز أفراد تلك الجماعة عن غيرهم"، وإن الشعور بما "يجمع أفراد الجماعة ويميزهم عن غيرهم هو شعور متبادل بين جميع أفراد الجماعة" (كناعنة ٢٠١١، ص ٤٤٤). ويتضح من رأي كناعنة أن تأكيد الهوية مرهون ليس فقط بتمايز الجماعة عن غيرها، بل أيضاً بشعور أفراد الجماعة بتميزهم من غيرهم، وهذا الشعور هو ما يخلق حالة يمكن تسميتها، بتعبير آخر، ثقافة جمعية. واستناداً إلى معطيات التاريخ وتشكل مكونات الهوية الثقافية تاريخياً، فإن هذا الشعور يكون مدخلاً لتشكيل الذاكرة الجمعية التي عوّلت عليها عزمي بشارة مثلاً في تأكيد الهوية، وهو ما سنأتي على ذكره لاحقاً.

ويتفق بركات مع ما ذهب إليه كناعنة بتحديد الهوية عبر علاقة التمايز، وذلك عبر استخدام "الأنا والآخر"، إذ يعتقد أن الحديث عن الهوية، وبمعنى آخر تحديدها وتعريفها، يقود إلى رسم حدود بين الذات والآخر، بين الـنَحْنُ والـهَمْ. نرسم دوائر حول الذات" (بركات ٢٠٠٠، ص ٦٠). فتعريف الذات يعني نفي الآخر من جوهر الذات، أي تمييزه منها عبر رسم الحدود، أمّا كيف تُرسم الحدود ومَن

أتمايز عنه. ويشرح عبد الرحيم الشيخ (الشيخ ٢٠١٣، ص ٧٢) هذا البعد الفلسفي بالعودة إلى هيغل وصولاً إلى حسين البرغوثي عندما يشير إلى أن تحديد الهوية له بعدان "بما هو وبما ليس هو" وصولاً إلى استنتاج فحواه أن تحديد الـ"هو" يعني "بما هو ليس هو"، وبمعنى آخر "الشيء يُعرف بنقيضه" مثلما قال سبينوزا (الشيخ ٢٠١٣، ص ٧٢).

ويستعيد الشيخ الأدبيات العربية القديمة لتأكيد التقاط العرب فكرة التمايز في تعريف الهوية، فعند الجرجاني هو "المتعلّق من حيث امتيازته عن الأغيار"، وعند الفارابي "عينيّته وتخصّصه وخصوصيته ووجوده المتفرّد الذي لا يقع فيه شرك". أمّا عند شيخ المؤرخين العرب ابن خلدون فإن "انتفاء خصوصية الشيء تعني انتفاء وجوده" (الشيخ ٢٠١٣، ص ٧١)، بينما نقرأ عند محمود درويش في قوله الشعري المعروف "أنا لغتي"، أن الأنا، أي الهوية بمعنى آخر، تتحدد باللغة المتميزة عن غيرها. والخصوصية هنا عند الفارابي وابن خلدون تحيل على التمايز، فمن غير الأولى لا تكون الثانية، فخصوصيتي هي أنني لست غيري. وقد أكدت المادة المعجمية لغوياً حقيقة التمايز في تعريف الهوية عندما اعتبر المعجم الوسيط أن الهوية لغوياً تعني "حقيقة الشيء أو الشخص التي تميزه عن الآخرين" (المعجم الوسيط ١٩٩٨). وبالتالي نلاحظ أن لا قيمة لهوية من دون تمايزها عن الهويات الأخرى، وإلا فلن يكون من معنى لتعريف الهوية بأنها تأكيدات الذات الجمعية، وهذا ما ينطبق على جميع الهويات بتنوعاتها، ومنها الهوية السريانية الإثنية. وبهذه الطريقة يمكن فهم التعددية الهوياتية، وتالياً التعددية الثقافية والقومية والإثنية

تماماً مع العديد من التعريفات التي جرى التطرق إليها، والتي تنتمي إلى حقول متعددة من العلوم الإنسانية، ومنها الأنثروبولوجيا وعلما الاجتماع والسياسة، وفحواها أن الهوية وعي بالانتماء، وشعور مشترك يربط أعضاء المجموعة معاً، ويخلق تماسكاً فيما بينها، ويوحدها ويميزها من الآخرين.

### III - الهوية: حد الصراع كباعث على التشكل

ليست قليلة تلك الكتابات التي تؤشر، بهذه الطريقة أو تلك، إلى أن الصراع، على تنوعاته، أدى دوراً محورياً كباعث على تشكل الهوية، أو بصيغة أخرى، كان بمثابة الحاضنة لتشكلها تاريخياً، سواء ارتبط النقاش بالهوية، أو بالقوموية، في مرحلة تشكل الهويات الحديثة في أوروبا، أو في مرحلة تشكل الهويات في الحالة الاستعمارية. والصراع هنا، بمعنى ما، هو الطرف الثاني في علاقة "الأنا والآخر"، أكان الآخر حافزاً "استفزازياً" لتشكل الهوية بفعل تأثيراته الثقافية والسياسية، مدعوماً أحياناً بثقل السلوك الاستعماري، كما في حالة الحراك العربي النهضوي في القرن التاسع عشر، أي الحراك الساعي لتأكيد هوية الذات في مقابل الآخر، ما بعد حملة نابليون واستمراراً بعد خضوع المنطقة العربية للاستعمار المباشر، أم أكان الآخر هو الطرف النقيض لبناء الدولة الحديثة كما هي الحال في مرحلة صعود البورجوازية الأوروبية على أنقاض الإقطاع كنظام سياسي/اقتصادي/اجتماعي، المدعوم من المؤسسة البابوية التي وفرت غطاءً أيديولوجياً للإقطاع. في الحالتين تبدو حالة الصراع كمفترق

يرسمها فذلك ما سنتطرق إليه لاحقاً عندما نتناول سياسات صنع الهوية. ولما كانت الدراسة تتناول الهوية الإثنية للسريان باعتبارهم مجموعة بشرية يوحد أفرادها شعور بالانتماء إلى تلك المجموعة، فإن نظريات علم النفس الاجتماعي هنا تقدم مدخلاً نظرياً مهماً، ولا سيما أننا نتحدث عن مجموعة بشرية يوحدتها شعور مشترك يخلق هوية، أكثر مما نتحدث عن فئة اجتماعية توحدتها معطيات تتصل بالبنية الاجتماعية، أو بفئات المجتمع (النساء والطلاب مثلاً). يجادل هنري تاجفيل الذي وضع عملياً نظرية الهوية الجماعية، بأن "أي مجتمع يحتوي على تمايزات في القوة، والمكانة، والهيبة الاجتماعية يوضع كل منا في فئات اجتماعية - والأدق أن نقرأها مجموعات - تتحول إلى جزء غير منفصل من تعريفه لذاته" (مكاوي ٢٠٠٢). وواضح هنا أن تاجفيل إنما يقصد انتماء الأفراد إلى مجموعات كبيرة، وعلاقة القوة والصراع بين تلك المجموعات، مثلما هو واضح في ثنائيات الفرد/الجماعة. فالفرد في هذه الحالة، ليس مأخوذاً بمعزل عن محيطه الاجتماعي، أو الجماعة التي ينتمي إليها، والهوية التي تربطه بالجماعة ككل، وإنما يتم تعريفه بالارتباط بتلك الجماعة عبر الهوية المشتركة. ويعرّف تاجفيل الهوية الجماعية على أنها "ذلك الجزء من المفهوم الذاتي للفرد، النابع من وعيه لكونه عضواً في جماعة (أو جماعات) مضافاً إليه الاعتبارات القيمية والعاطفية التي تحال إلى تلك العلاقة" (مكاوي ٢٠٠٢). ونلاحظ أن هذا التعريف المنتمي إلى علم النفس الاجتماعي يتفق

واضحاً للغة والرموز في تمييز شعب من آخر، وفي تحديد التخوم بين الشعب والآخر، ويشير إلى الأدوات والحكايا الشعبية والملابس... وغيرها باعتبارها رموزاً لتشكل الجماعة والهوية (Hobsbawm 1992).

وينحو أندرسون منحى مختلفاً بعض الشيء، إلا إنه يصبّ في الاتجاه عينه، فهو يحيل على الطباعة الحديثة الدور المركزي في تشكيل الهوية باعتبار أن الهوية تُصنع صناعة، وهو ما سنأتي على ذكره لاحقاً، وبالتالي فإنها، أي الطباعة، أدت دوراً في تعميم التصور الشعبي للذات/الهوية، وفي الالتفاف حول ذلك التصور لصوغ التعريف الذي يتناقض مع تعريف الآخر، والتعريف هنا مأخوذ بمعنى الصراع على ما نعتقد. فاللغة بالنسبة إلى أندرسون قامت بدور في خلق الهوية القومية عبر آليات الطباعة الحديثة، الأمر الذي ساهم في خلق المجتمعات المتخيلة، وهي مقولته الأهم والأشهر في حقل الدراسات بشأن الهوية والقوميات (Anderson 1991).

والمجتمع المتخيل لا يعني بحسب أندرسون عدم واقعية المجتمع، بل إن الفرد لا يعرف الجماعة كلها، لكنه يتفق مع جميع أفراد الجماعة على "تصور مشترك للعلاقة الجماعية، وهو حقيقي يتم بناؤه وليس وهماً يتم تخيله" (أبو دحو ٢٠١٤، ص ٣). وينحو بشارة منحى أندرسون ذاته بتأكيد أهمية الطباعة في صنع الهوية القومية، فسمّاه "رأس المال الطباعي".

وكان الحصري قد أشار إلى فكرة التخيل هذه، حين أشار إلى أن الهوية القومية لا تتشكل من "أصل عرقي مشترك"، وإنما من الاعتقاد بوجود أصل مشترك، وما الاعتقاد

تاريخي بارز لتشكل القومية والهوية. والقضية في تصورنا لا تكمن فقط في علاقة التزامن التاريخي بين مرحلة سياسية ما، في أوروبا أو في الحالة الاستعمارية، وبين تشكل القوميات والهويات، مع ما يتضمنه هذا التزامن من علاقة منطقية بين المتغيرين، المرحلة وتشكل الهوية، بل، وفي الأساس، في أن الهوية تنشأ على أساس التمايز بين الأنا والآخر، بين ما هو وليس هو، فالهوية بطبيعتها، مثلما مر سابقاً، تنهض على قاعدة نفي الآخر، والتمايز عنه، وفي هذا النفي والتمايز صراع بمعنى ما. لذلك نقول إن الصراع كان عاملاً حافزاً شكل حاضنة ضرورية لتشكل الهوية باعتباره فعل تمايز واختلاف بين الأنا والآخر.

وفقاً لهذا المنحى مثلاً، يربط هوبسباوم بين نشوء القوميات، والهويات، وبين السعي للقضاء على الممالك الإقطاعية وحواجزها في وجه متطلبات السوق البورجوازية الناشئة، وهذا ما يجب أن يرافقه توحيد الرؤى والرموز والتصورات، الأمر الذي يدفع في اتجاه تشكل هوية مشتركة جامعة قاعدتها تلك الرؤى والرموز والتصورات، بحيث يتم الربط بين المستوى الاقتصادي/السياسي، وهو هنا متطلبات الثورة البورجوازية على الصعيدين السياسي (بناء الدولة) والاقتصادي (توحيد السوق)، وبين المستوى الثقافي الهادف إلى بناء ذاكرة جماعية قوامها تلك الرؤى والتصورات والرموز (Hobsbawm 1992). إن هوبسباوم هنا، كمفكر ينتمي إلى مدرسة التحليل الماركسي لا يقف عند تخوم التحليل الاقتصادي فحسب، بل يتجاوزها لمعاينة أثر المكون الثقافي في تشكل القوميات والهويات، فيفرد حيزاً

والجمعيات والأطر الممثلة للطوائف والمذاهب والمجموعات العرقية والإثنية. فكل مجموعة بشرية تصنع هويتها وفق رؤيتها، والأدق القول، رؤية الطرف المهيمن على المجموعة، أكانت المجموعة البشرية أمة، أم مجموعة صغيرة مهنية، أم إثنية، أم دينية، فمثلما الدولة تصنع وتنمي هوية الشعب وفق رؤيتها الأيديولوجية والطبقية، كذلك يصنع المسجد هوية جماعة المؤمنين مثلاً، ومدرسة الأحد تبلور أنشطة الشبيبة المسيحية، من دون نسيان المؤسسات السياسية والاجتماعية والدينية الممثلة، طوعاً أو قهراً، للمجموعات الإثنية والمذهبية.

لقد وصلت صناعة الهوية إلى حد أن الحصري اعتبر أن التاريخ المشترك الذي يُعدّ عاملاً أساسياً من عوامل تشكل القومية وهويتها يجري التعامل معه كتاريخ انتقائي، بحيث يتم حذف بعض من أحداثه ومحطاته لبناء ما هو مشترك (الحصري ١٩٨٥).

والانتقاء هنا هو وظيفة معدّ وصانع سياسات الهوية الذي يقرر، على ضوء متغيرات كثيرة، ماذا يحذف من الرواية المعممة وماذا يُبقي، وهنا تؤدي اللغة عبر "رأس المال الطباعي" دورها في نقل التجربة التاريخية وتعميمها وفق موقف صانع الهوية ورؤيته. وهكذا نستطيع أن نقرر من دون عناء أن الدولة الأرمنية مثلاً تُسهب في تسجيل وتعميم رؤيتها التاريخية المتضمنة المجازر البشعة التي ارتكبتها السلطة العثمانية في سنة ١٩١٥، ضد الأرمن والسرمان والمسيحيين عامة، كتطهير عرقي، وفي المقابل يمكن اعتبار سلوك السلطات التركية المتعاقبة منذ المجزرة حتى اليوم، تجاهلاً لتلك المجزرة، وإذا جرى ذكرها فذلك إنما

هنا سوى التخيل لأصل ما (الحصري ١٩٨٥). وفي تحليله لنشوء الهوية العربية يركز بركات على الصراع لتثبيت الهوية العربية بعد انهيار الخلافة العثمانية وتنامي المطامع الاستعمارية، حتى يصل إلى القول: "فكثيراً ما نحدد هويتنا من خلال علاقة القوة المتبعة ونوعية الخلافات أو التحالفات، ومن خلال نظرة الآخر وتعامله معنا" (بركات ٢٠٠٠، ص ٦).

وعلى الصعيد الفلسطيني يعتقد الباحث أن الهوية الفلسطينية بدأت بالتشكل منذ بدايات القرن العشرين (المشروع الصهيوني والانتداب البريطاني) عبر الصراع مع المشروعين الاستعماريين: البريطاني والصهيوني الاستيطاني، ومررت بعملية تطويرية بلغت ذروتها في مرحلتين مارستا تأثيراً مصيرياً: النكبة كحدث تاريخي استدعى السعي لتأكيد الهوية بمكوناتها، وتأسيس المنظمة ككيان سياسي صانع لسياسات الهوية.<sup>١</sup>

#### IV - سياسات الهوية

تطرق الباحثون في مجال الهوية إلى سياسات صناعتها، فالهوية تُصنع صناعة من طرف الدولة في حال وجودها، أو المؤسسات السياسية الممثلة لشعوب وجماعات معينة. وصناعة الهوية تشمل بناء تصور مشترك ورؤية مشتركة، وتاريخ مشترك، وتعزيز رموز معينة، وذاكرة جمعية... وجميعها يصبّ في اتجاه واحد: مكون ثقافي يوحد رؤية المجموعة البشرية إلى ذاتها وإلى الآخرين. وهذه الصناعة ليست حكرًا على الدولة، أو الكيان السياسي الممثل للهوية القومية، بل تتعداهما إلى المؤسسات

حكومية [...]” و”العمل على بناء هوية وطنية فلسطينية تقوم على... وضع سياسات تساعد على رفع مستوى الاندماج [...]” (السقا ٢٠١٣، ص ٦١)، بينما ينحو بركات منحى آخر يؤكد ما يتوجب القيام به عبر سياسات الهوية حين يطالب بتحديد ”نوعية الحدود التي نريد أن نقيمها بيننا وبين الآخر، وما الحدود التي نريد أن نزيلها” (بركات ٢٠٠٠، ص ٦١).

ونختم هذا القسم بتأكيد الاتفاق مع ما ذهب إليه الشيخ من أن ”التشكيل التاريخي للهوية في حقبة الحداثة... أمر تتم صناعته وتشكيله سياسياً”، مؤكداً أن أهم الاستنتاجات على هذا الصعيد هو أن الهوية تتم هندستها، فهي ظاهرة حديثة، أي ”مصنوعة” وليست ”مخلوقة”، فضلاً عن أنها تتضمن تحويل ”الحكاية الشعبية” إلى ”حكاية تاريخية مكتوبة” (الشيخ ٢٠١٣، ص ٧٢). وعملية التحويل هذه تتضمن استخدام رأس المال الطباعي مثلما أشار إليه أندرسون وبشارة. وبسبب أهمية رأس المال الطباعي ذلك، فقد اشتق إرنست غيلنر، (كما ينقل عنه الشيخ)، مفهوم ”المجتمع الكتابي” للإشارة إلى أهمية الطباعة والكتابة، ذاهباً إلى حد تقسيم المجتمعات بحسب تطورها، إلى ثلاث مراحل: المحراث والسيف والقلم.<sup>٢</sup> والأهم أننا ما دمنا نتحدث عن ”حكاية شعبية”، فإن الأسطورة والمبالغة والرومانسية محور مهم في صوغها، وهو ما سنفرد له حيزاً من النقاش لاحقاً. ثمة قضيتان أساسيتان تتعلقان بسياسات الهوية وتحتلان أهمية استثنائية في دراستنا هذه، وقد برزتا سابقاً في عرضنا لموضوعات لصيقة بالهوية، وهما:

الأولى: المؤسسات التي تنهض بمهمة

يكون من باب إنكارها تماماً واعتبارها مثلاً للتشويه المتعمد للتاريخ التركي! ولتعميم توجهات صانع السياسة الهوياتية تبرز هنا الحقول والمؤسسات التي يجري عبرها هذا التعميم: التعليم بجميع مراحل ومؤسساته عبر المنهاج وسياسات التعليم؛ الإعلام على تنويعاته وأشكاله، عبر مختلف أشكال التعبير الأدبي والفني، من سينما ومسرح وشعر ورواية وقصة وحكاية شعبية، وعبر الملابس والأغنية والرقص وأنواع الطعام... إلخ؛ باختصار عبر كل ما من شأنه بناء رؤية وتصور مشترك يحقق ما يصبو إليه المهيمن على موقع صانع الهوية. يمكن على سبيل المثال الاتكاء على مفهوم ”صناعة العقول” لبوردو و دور التعليم والمدارس في فهم حقيقة صناعة الهوية لفهم دور تلك المؤسسات (بوردو ٢٠١٢)، كما يمكن الاستعانة بمفهوم ”أجهزة الدولة الأيديولوجية” لآلتوسير لتوضيح الأبعاد الطباقية لتلك الصناعة ولدور الدولة والقطاع الخاص (آلتوسير ١٩٨١)، ليس فقط في تعميم رؤية ما، بل في إعادة إنتاج الإنسان وفق رؤية الطبقة المهيمنة على جهاز الدولة، وإعادة الإنتاج بالتأكيد تتطلب صوغ هويته. ولتأكيد أهمية صناعة الهوية فإن كناعنة على سبيل المثال يدعو إلى برنامج هدفه السعي لبقاء الشعب الفلسطيني موحداً بهوية موحدة عبر معالجة ما سُمّاه ”الإعاقة الثقافية” للفلسطينيين، وبرنامج المقترح يحوي كثيراً مما يعتقده ضرورة لتعزيز الهوية ومكانتها (كناعنة ٢٠١١، ص ٣٨٣ - ٣٨٤). وعلى المنوال ذاته يقترح السقا مجموعة من السياسات كحلول لأزمة الهوية الفلسطينية منها ”تبني سياسات رسمية/

من دون جذور. ومع ذلك، وعلى الرغم من أن الأسطورة ظاهرة في جميع الروايات التاريخية للمجموعات البشرية، فإنه ليس مهماً صحة أو عدم صحة هذا التاريخ، بل الأهم والحاسم، هو دور تلك الرواية التاريخية في خلق رؤية موحدة، وتصور موحد، وهو "اعتقاد" بحسب ساطع الحصري، يؤدي دوره في تشكيل هوية الجماعة. سنلاحظ في النقاش ما للأسطورة من ثقل في الرواية التاريخية السريانية المثبتة في مخطوط سرياني قديم. فعلى سبيل المثال، فرعونية مصر بالنسبة إلى قطاع واسع من المصريين اليوم، وفينيقية لبنان المعاصر (على الأقل لقطاع من السكان)، وقحطانية العرب المعاصرين، والانتماء الفلسطيني الكنعاني، وتسلسل الرايح الألماني حتى الدولة الألمانية النازية، ومثله دولة موسوليني الفاشية العائدة إلى عهود الإمبراطورية الرومانية، كلها مؤشرات على حقيقة الأسطورة لبناء الذات/الهوية لمجموعة ما. ولدينا، فيما ذهب إليه شلومو ساند، دليل معاصر على الجهود المبذولة، حتى اليوم، لما سمّاه محقّقاً "اختراع الشعب اليهودي"، فالسعي لتحويل مجموعات يهودية سكانية منتشرة في بقاع الأرض إلى شعب بهوية قومية موحدة، تطلب منذ أواسط القرن التاسع عشر، بحسب ساند، جهداً ثقافياً فردياً تحول لاحقاً عبر المؤسسات الصهيونية ولا يزال، إلى جهد جماعي لتشكيل هوية استناداً إلى أساطير التوراة والتناخ، ومن أكثرها محورية أسطورة أرض الميعاد والوعد الإلهي، أسطورة الخروج من مصر، النفي الأول والنفي الثاني (ساند ٢٠١١).

وفي الحالة الفلسطينية، وعلى الرغم من أنه يصعب من الناحية العلمية الصرف إثبات

تحديد سياسات الهوية لمجموعة بشرية محددة، ودراسنا تتناول السريان الفلسطينيين كمجموعة إثنية.

الثانية: كيفية تمظهر تلك السياسات في الممارسة السياسية/الاجتماعية، وبصيغة أخرى، ما هي العناوين التي يجري التركيز عليها باعتبارها مكون هوية الجماعة الأساسية.

وتحليل القضية الثانية على ما يمكن

اعتباره مكونات الهوية، والتي يمكن استنتاجها من مجمل مراجعات وجهات النظر والتوجهات المعروضة أعلاه: اللغة كمكون رئيسي للمجموعة البشرية؛ الثقافة باعتبارها النتاج المادي والفكري أو بصيغة أخرى "نمط الحياة وطريقة العيش"، بما تتضمنه من رموز تشكل، باتفاق الجماعة، وبتدخل صانع الهوية، مدخلاً لتعزيز الهوية المشتركة والجامعة للجماعة؛ أخيراً ذلك التصور للتاريخ المشترك، الحقيقي أو المؤسّر، والذي يُعدّ مدخلاً جوهرياً لتوحيد رؤية الجماعة إلى ذاتها، وبالتالي تمايزها عن الآخرين، أي باعتبار ذلك التاريخ مدخلاً لتحديد علاقة الـ "أنا" بالـ "نحن".

وعن الأسطورة يجب تأكيد ما نعتقد أنه

مثبتاً في دراسات الهوية: لا يوجد مجموعة بشرية لا تؤسّر تاريخها بطريقة ما، فكل مجموعة بشرية، قومية كانت أو دينية أو إثنية أو عرقية، تنحو إلى صناعة تاريخ أسطوري لها، عريق وغارق في القدم، يتضمن كمّاً كبيراً من المغالاة والرومانسية؛ فمن أجل التمايز عن الآخر، وإظهار "مشروعية تاريخية ما"، لا بد من امتداد تاريخي بين المجموعة اليوم والمجموعة عبر التاريخ لإظهار أنها ليست مقطوعة الجذور، وأنها لم تنمّ كالفطر



يصفها بشارة، وهو هنا يأخذ العراق ودول المشرق العربي تحديداً، سعي الاستعمار لبناء الهوية الوطنية ليس على حساب القبيلة والطائفة، وإنما "على أساسها وضد القومية معتمداً على الأقليات، أو ما صنّفه هو كأقليات، في بناء الجيش" (بشارة ٢٠٠٩، ص ٥٩). وبالنتيجة تحولت الطائفية إلى هوية سياسية، فما بالنا بالاثنيات؟! وفي معرض شرحه لطبيعة النظام في العراق في عهد صدام حسين، كمثال، فإن بشارة لا يعتقد أن النظام كان طائفيًا، مؤكداً أن نظام صدام حسين "لم يُحكَم بالسنة، بل بجهاز الدولة والمخابرات والحزب بشيعته وسنته" (بشارة ٢٠٠٩، ص ٦٠).

وكان هشام شرابي قد أشار في معرض تحليله علاقة التبعية التي فرضها الغرب الإمبريالي على المنطقة العربية، إلى أن الإمبريالية سعت للحفاظ على تخلف البنية الاجتماعية العربية بمختلف تكويناتها ما قبل دولة المواطنة، كمدخل إلى آليات تحقيق تبعيتها لها، وذلك عبر استخدام النخب المحلية التي جرى "صناعتها" عبر العديد من الآليات والمؤسسات وأهمها التعليم والإرساليات التبشيرية، لنغدو أمام "أبوية مستحدثة" كما يسميها، تعيد إنتاج البنية الاجتماعية، وتحاول تالياً منع قوى التغيير فيها من الفعل (شرابي ٢٠٠٠، ص ١١٧ - ١٥٠).

أمّا في السياق الفلسطيني، فتكفي الإشارة إلى تثبيت الاستعمار البريطاني لفلسطين لمنصب "المختار" كمؤسسة تقليدية تستند إلى الحمائلية، وإلى أن الاستعمار الصهيوني استمر في انتهاج السياسة ذاتها في الضفة الغربية وقطاع غزة. أمّا في داخل الكيان الصهيوني فحسبنا الإشارة إلى السعي

الأصل العرقي الكنعاني "النقي" للفلسطينيين، فإن المؤسسة الفلسطينية على تنوعاتها، وكذلك الجهد الأدبي والفني المكتوب والمرئي، يؤكدان الأصل الكنعاني التاريخي للفلسطينيين في أسطورة بيّنة. إن قضية الأسطورة تغدو ملحّة جداً على صعيد مناقشتنا لرؤية السريان إلى ذاتهم كسريان، كمجموعة إثنية مدمجة في التكوين الهوياتي الأوسع للشعب الفلسطيني، ومحافظّة في ذات الوقت على مكونات هويتها الإثنية الخاصة بها.

## V - الدولة العربية والتكوينات المجتمعية

على الرغم من وضوح التدخلات الخارجية في الأزمات العاصفة حتى اللحظة في المنطقة العربية، وخصوصاً ليبيا والعراق وسورية، فإنه يمكن اعتبار انفجار هذه المجتمعات في صراعات دموية، مؤشراً إلى إشكالية علاقة الدولة بمختلف التكوينات المجتمعية، دينية أو عرقية أو إثنية، في حين أظهرت أزمات تلك المجتمعات حقيقة ذلك التنوع الثقافي والإثني والديني والقومي الغني إلى أبعد الحدود، والذي يطبع تلك المجتمعات العربية بطابعه الحاضر، وخصوصاً في سورية والعراق ولبنان. وإذا كان لبنان قد حل المسألة عبر ما يطلق عليه "الديمقراطية التوافقية" مثلما سماها بشارة (بشارة ٢٠٠٩)، إلاّ إنها توافقية لا تمت إلى الديمقراطية بصلّة، ولا تقوم بتعزيز مفهوم المواطنة على مستوى العلاقة بين الدولة والفرد، بل تحمل عوامل التفجر التي واكبت تأسيس النظام اللبناني. إن الظاهرة التي باتت تطبع الدولة القطرية العربية هي كما

## VI - السريان بين الاندماج والإقصاء

يكاد يتفق الباحثون على أن السريان هم الآراميون الذين طبعوا سورية الطبيعية، أو ما يُعرف ببلاد الشام، شرقاً وغرباً حتى ما بين النهرين، وشمالاً حتى الأناضول، بطابعهم الثقافي واللغوي لمئات السنين منذ ما قبل المسيحية إلى قرون بعدها (مخول ٢٠٠٩). ويبدو أن مصطلح السريان ظهر أساساً للتمييز بين الآراميين الذين اعتنقوا المسيحية، وأولئك الذين بقوا على معتقداتهم الدينية السابقة، ولذلك يقول كاهن كنيسة العذراء للسريان الأورثوذكس: "نحدر من الآراميين. ننتمي إلى هذه القومية الآرامية."<sup>٧</sup> وقد أشار مخول إلى العديد من الدويلات التي أقامها الآراميون في منطقة الهلال الخصيب (مخول ٢٠٠٩)، بينما يعد مركز المعلومات الوطني الفلسطيني (وكالة الأنباء والمعلومات الفلسطينية "وفا") أربعة ممالك: مملكة الرها (تركيا)؛ مملكة تدمر (سورية)؛ مملكة الحظر (العراق)؛ مملكة الأنباط (الأردن). خلاصة القول أن السريان أصحاب جذور آرامية، وكان لهم دويلات أو ممالك قبل المسيحية بقرون، لكن ما يجب الإشارة إليه هو أن الحديث عن "الجذور" الآرامية يطال البعدين اللغوي والثقافي/الديني أكثر مما يطال البعد العرقي السلالي. وكان البعد اللغوي طاغياً وطبع الهلال الخصيب بطابعه الخاص لمئات السنين، ولا تزال السريانية اليوم، باعتبارها آرامية حديثة، مثلاً لذلك. أما القضية الثانية فإن "ممالك ودويلات" الآراميين أقرب إلى صيغة "المدينة/الدولة" التي كانت معروفة في التاريخ اليوناني، بل إنه حتى من أسماء تلك الدويلات/الممالك المرتبطة بأسماء مدن

الصهيوني لتعزيز البنية الطائفية، والذي

تحول إلى موقف رسمي يتجسد في

الإحصاءات الرسمية.<sup>٣</sup>

في الحالة الفلسطينية ينتصب الصراع مع

المشروع الاستيطاني الإحلالي كمحدد

لعلاقات التكوينات الاجتماعية داخل الشعب

الفلسطيني. ففلسطين لا تعرف ذلك التنوع

الواسع للتكوينات الطائفية والإثنية كما في

حال لبنان وسورية والعراق، ومع ذلك، فإن

فيها من التكوينات الطائفية (مسلمون سنّة،

ومسيحيون بمذاهبهم الأساسية، ودروز،

وبهائيون)،<sup>٤</sup> والتكوينات الإثنية (أرمن

وشركس وسريان)، ما جعل الكيان الصهيوني

يعتمد سياسة تعزيز تلك التكوينات بديلاً من

الهوية الوطنية الجامعة.<sup>٥</sup>

إن طابع المشروع الصهيوني في فلسطين

كمشروع استيطاني إحلالي حمل عدائية

موضوعية لجميع التكوينات الاجتماعية،

فالرغبة في الاستيلاء على الأرض وتفريغها

من سكانها طالت، وما زالت، مختلف

المجموعات الطائفية والإثنية.<sup>٦</sup> كما أن طابع

الصراع مع المشروع الصهيوني حفّز على

تشكيل الهوية الوطنية الجامعة، وبالتالي

كان هو المحرك الأول في تأكيد وحدة تلك

المكونات الاجتماعية داخل تلك الهوية

الوطنية، على قاعدة الحفاظ على سماتها

الهوياتية كمجموعات غيرية.

وعلى الرغم من دور الصراع مع المشروع

الصهيوني، وتالياً مع السياسات الصهيونية،

في تحفيز تشكل الهوية الوطنية الموحدة

للفلسطينيين على اختلاف مكوناتهم، فإن

جميع المجموعات حافظت على هوية

مجموعاتية خاصة بها في إطار تلك الهوية

الجامعة.

سعي واضح لتبرير جميع الممارسات ضد السريان ما قبل ذلك العصر بما فيها "هجرة" قبيلة تغلب النصرانية من الجزيرة إلى العراق لرفضها دفع الجزية. أمّا منذ سنة ٨٢٩ فيسهب في الحديث عن اضطهاد الكنيسة السريانية، سواء على يد المسلمين أو الصليبيين لاحقاً.<sup>١٠</sup>

ومع ذلك، وبعيداً عن الرومانسيات القومية والإسلامية التي تضيء لمحات مثالية على التاريخ العربي الإسلامي على صعيد العلاقة بين الدولة و"رعاياها"، يجب الإشارة إلى الطابع التمييزي الذي ميّز الدولة الإسلامية آنذاك تجاه مَنْ تم تصنيفهم "أهل ذمة"، ليعيش هؤلاء بين فكّي علاقة ملتبسة: فمن جهة يندمجون في المجتمع العربي الإسلامي كمكون رئيسي فيه، ومن جهة ثانية يتم إقصاؤهم والتمييز ضدهم باعتبارهم "أهل ذمة"، أي مواطنين من الدرجة الثانية بالمصطلح العصري.<sup>١١</sup>

ونظراً إلى طابع الدولة الدينية في القرون الوسطى، سواء في الشرق أو في الغرب، أكانت مسيحية أم إسلامية، فإن التمييز، والقمع على أساس الانتماء الديني، والحرمان من الحقوق أيضاً لاعتبارات دينية، أمور كانت تُعتبر سلوكاً "طبيعياً" جداً، فالمواطنة والحقوق والمساواة فيها والواجبات وغيرها من المفاهيم الحقوقية والقانونية المرتبطة بالدولة الحديثة والفكر السياسي والحقوق المعاصر، هي نتاج مرحلة تاريخية مختلفة عن تلك في القرون الوسطى، ومع ذلك يجب، للحقيقة التاريخية، تسجيل واقع الأقليات المذهبية التي عاشت آنذاك في ظل الدولة العربية الإسلامية.

صغيرة، يمكن القول إنها ليست سوى "دولة/مدينة".

وتُجمع الدراسات التاريخية على أن السريان أدوا دوراً محورياً في الحضارة والثقافة العربيتين/الإسلاميتين، بفعل عاملين هما: أولاً، كونهم أبناء لجميع المنتج الثقافي والحضاري والعلمي للإمبراطوريات القديمة، اليونانية والرومانية والفارسية، الأمر الذي مكّنهم من الاطلاع على ذلك المنتج والمساهمة فيه، كما أن دورهم الثقافي تعزز نتيجة ذلك الجدل اللاهوتي الفلسفي الذي وجد اللاهوتيون المسيحيون أنفسهم غارقين فيه دفاعاً عن مذاهبهم وتوجهاتهم في فترة عاصفة من تاريخ الكنيسة (بدءاً من القرن الخامس للميلاد وصولاً إلى القرنين الثامن والتاسع)؛ ثانياً، تلك البيئة الثقافية والعلمية التي نجح الخلفاء العباسيون في إيجادها، وتحديدًا على صعيد الترجمات، فاشتهرت مدارس الرها ونصيبين كمراكز للجهد الثقافي السرياني الذي مارس تأثيره في الثقافة العربية/الإسلامية.<sup>٨</sup> ومن المفيد هنا الإشارة إلى أن السريان إنما قاموا بجهودهم العلمية والثقافية باعتبارهم مكوناً أساسياً من مكونات الحضارة والثقافة العربية الإسلامية، مندمجين فيها على الرغم من الطابع الديني للدولة و"تصنيفات الرعايا وأهل الذمة"، باعتبار أن الإسلام هنا، بارتباطه كمصطلح بالحضارة والثقافة، لا يُنظر إليه كدين بقدر ما يُنظر إليه كإطار حضاري تتفاعل فيه مكونات الحضارة كلها، بمن في ذلك المسيحيون.<sup>٩</sup> وفي هذا السياق يعتقد سمير عبده أن العصر العباسي هو بمثابة "العصر الذهبي" للسريان تاريخياً، مع

## VII - سريان بيت لحم كمجموعة إثنية ذات هوية متميزة

يرجع الوجود السرياني المعاصر في بيت لحم إلى قدوم السريان من مناطق سكناهم الأصلية، شمال سورية وجنوب تركيا (جبال الأناضول)، بعد مجزرة التطهير العرقي في سنة ١٩١٥ على يد العثمانيين، علماً بأن الوجود في بيت لحم يعود إلى مئات السنين قبلاً، ومثبت أثرياً في حوش السريان في بيت لحم اليوم.

وتتضارب الأرقام بشأن عدد سريان فلسطين، مع أن قلة عددهم إجمالاً، كما يبدو من الأرقام، ووجود مؤسسات ترعى مصالحهم، الكنيسة أساساً، يوفران في تقديرنا فرصة سهلة لإحصاء دقيق لعددهم. ويقدر الكاهن بطرس عدد سريان فلسطين بـ ١٥٠٠ سرياني،<sup>١٢</sup> وفي مقابلته مع الباحث قدر العدد ما بين ١٢٠٠ و ١٥٠٠،<sup>١٣</sup> بينما أوردت وكالة "وفا" الفلسطينية رقم ٤٠٠٠ موزعين بواقع ٥٠٠ عائلة في بيت لحم و ٣٠٠ عائلة في القدس، مستندة في ذلك إلى ما وصفته إحصاء رسمياً مسيحياً، لكن من دون ذكر أي معلومات توثيقية عن هذا المصدر (موقع وكالة "وفا"، ٢٥/٥/٢٠١٧). ونحن نميل إلى الأخذ بالرقم الذي يورده الكاهن بطرس، فهو في النهاية كاهن الكنيسة/المؤسسة الأهم التي تشكل "حاضنة/كياناً هوياتياً" ما للسريان، مع أن رقم وكالة "وفا"، أخذاً بمعدل عدد أفراد الأسرة في فلسطين، وارتباطاً بعدد العائلات، يبدو منطقياً.

تنشط بين سريان بيت لحم أربع مؤسسات فاعلة: جمعية مار أفرام؛ الكنيسة؛ النادي ومجموعته الكشفية؛ الجمعية الأنطونية. ومع

أن جمعية مار أفرام تشرف على أنشطة الكنيسة والمجموعة الكشفية والنادي، إلا إن الكنيسة هي من دون أدنى شك المؤسسة الأهم بحسب جميع المبحوثين، وهي تقوم مقام "الكيان الهوياتي" للسريان، فتنظم حياة أفراد المجموعة، وتشرف بصورة عامة على أنشطتهم، وتمارس دورها في رسم "سياسات الهوية" الخاصة بالمجموعة.

## VIII - السريان: سياسات الهوية

ينطبق على المجموعة السريانية في بيت لحم ما ينطبق على مختلف المجموعات الإثنية والقومية والطائفية عامة، فهناك مَنْ يرسم ويحدد ويقرر سياسات معينة لتعميق الهوية عبر المؤسسات الفاعلة، وأهمها في حالة السريان، الكنيسة. وقبل الولوج إلى طبيعة تلك السياسات، يجب توضيح الفارق بين المجموعة القومية (الأرمن) والمجموعة الإثنية (السريان) في فلسطين، وفي اعتقادنا فإن الفارق الرئيسي يتمحور حول متغيرين اثنين: أولاً، عدم وجود دولة خاصة بالسريان ما بعد تحولهم إلى المسيحية، فضلاً عن عدم طرح تلك المسألة، أي الدولة، على جدول أعمالهم كسريان، وثانياً، عدم وجود حزب سياسي سرياني لا في فلسطين ولا في أي دولة يوجدون فيها.<sup>١٤</sup> أمّا في حالة الأرمن فالحزبان الرئيسيان في أماكن وجود الأرمن هما الحزب القومي الطاشناق، والحزب اليساري، لكنهما لا يمارسان في فلسطين عملاً سياسياً خارج إطار أرمن القدس، ولا يُعتقد بوجودهما كبنية تنظيمية، وإنما كتيار مؤيد لهذا الطرف أو ذاك للأحزاب السياسية الفلسطينية.<sup>١٥</sup> ومع ذلك، فإن الأرمن قومية تستند إلى بقعة جغرافية معروفة، وإلى ثقافة

الكنيسة عبء سياسات الهوية، وهو يتفق مع ما ذهبنا إليه، وما تؤكد آيرين هزو من أن الكنيسة هي "الرابط الأساسي للهوية السريانية... نحن جزء من المنطقة. لم يكن لدينا وحدة إقليمية قومية، وليس هناك أي مطلب سياسي لنا."<sup>١٦</sup> وفي تصورهما، فإن سياسة تعزيز الهوية لدى السريان هي إيجاد "خيط جميل ورقعة في القماش"، وواضح أن القماش فلسطيني، وهو تصور منطقي على أي حال، يعكس حالة الاندماج في الهوية الفلسطينية الأعمّ من دون التنازل عن "الخيط والرقعة في القماش". وما ذهبت إليه هزو ذهب إليه الكاهن بطرس وإن من زاوية الصعوبات التي تواجه الكنيسة كواضعة للسياسات: "هنا نحن غير أقوياء مادياً وفقراء ثقافياً بعكس الخارج. الانقطاع عن الكنيسة الأم [يعني كنيسة سورية] منعنا من استخدام الكنيسة كأداة لتعزيز الهوية. فلا كتب لدينا ولا أساتذة ولا دعم ولا منارة ثقافية، بعكس الخارج"، وبالتالي ليس هناك "أنشطة منهجية رسمية". والكاهن نعمة هنا لا ينفي دور الكنيسة كمحدد لسياسات الهوية، كما قد يبدو من قوله "منعنا من استخدام الكنيسة كأداة"، بقدر ما يشير إلى الصعوبات التي تحول دون قيام مؤسسة الكنيسة بدورها كما يجب، وقد عزا ذلك إلى الانقطاع جزاء الاحتلال، وهو ما يتضح من المقارنة التي يعقدها بين دورها في فلسطين ودورها في الخارج (عكس الخارج). وأخذاً في الاعتبار للصعوبات التي تناولها الكاهن، فإنه توقع بوضوح أن "الاحتمال الأكبر أمام السريان هو الانصهار."<sup>١٧</sup>

وبمزيد من التفصيل يذهب شكري ميشيل جريس إلى اعتبار دور المجموعة الكشفية

ولغة تاريخية واقتصاد في تلك البقعة ذاتها، وقد تجسدت تلك المكونات لاحقاً في جمهورية أرمينيا، أي أن دولة الأرمن وجدت ولا تزال عبر التاريخ القديم والحديث والمعاصر.

ومقولة الدولة، حضوراً أو انتفاءً، تؤدي دوراً محورياً في تحديد الجهة التي تأخذ على عاتقها تحديد سياسات الهوية. ففي الحالة الأرمنية مثلاً، إن وجود الدولة تاريخياً لم يكن بمثابة التعبير الكياني عن الدولة فحسب، بل كان هو والأحزاب الجهة الأبرز في تحديد سياسات الهوية، وفي مقدمها الرواية التاريخية للأرمن، وفي القلب منها التطهير العرقي في سنة ١٩١٥. أمّا في الحالة الكردية مثلاً، وعلى الرغم من أن الكيان السياسي يبرز دائماً بصفته مطلباً قومياً للأكراد بغض النظر عن شكله، استقلال تام أو انفصال في دولة، فإن التعبير عنه كمطلب، وتالياً القيام بأعباء سياسات الهوية، وفي القلب منها مطلب الكيان السياسي، حملهما الحزب السياسي: حزب العمال الكردستاني في تركيا، والحزبان: الاتحاد الديمقراطي في سورية، والديمقراطي والوطني في العراق. أمّا في فلسطين فيمكن اعتبار الوضع أقرب إلى الحالة الكردية: التعبير عن الهوية الوطنية كجزء من الهوية العربية، في مواجهة الاستعمار الصهيوني، بكيان سياسي هو منظمة التحرير ومنظومة واسعة من المؤسسات حملت الهوية ولا تزال، ووضعت سياساتها، وفي مقدمها التحرير والعودة وبناء الدولة.

يتعدّد الوضع في الحالة السريانية كمجموعة إثنية: لا دولة، ولا مطلب صريحاً بدولة، ولا حزب سياسياً، وبالتالي حملت

لغته يعني أن هناك نزوعاً إلى تأكيد هويته!

## IX - الأنا - الآخر الصهيوني

أغلب مَنْ قابلناهم من المبحوثين عبّروا عن هويتهم باعتبارهم سرياناً فلسطينيين، وأحياناً فلسطينيين سرياناً من دون إقامة وزن لترتيب علاقة النعت بالمنعوت؛ ففي النهاية هي هوية مزدوجة مثلما أشار أغلب المبحوثين، مع ملاحظة تمييز المبحوث بأسوس كما أثبتنا أعلاه. واللافت للنظر، أن أغلب المبحوثين أشاروا إلى السريانية باعتبارها قومية لا مجموعة إثنية، ولا نعتقد أن سبب ذلك هو فقط عدم التقاط الفارق بين المجموعة القومية والمجموعة الإثنية كمفاهيم سوسولوجية/سياسية، بل أساساً لأنهم يتعلقون، اعتقادياً وعاطفياً، بذلك التاريخ القديم للآراميين الذين طبعوا بلاد الشام بطابعهم اللغوي والديني عبر مئات السنين، على الرغم من عدم المشروعية العلمية لإطلاق صفة "القومية" عليهم آنذاك، والأهم في تقديرنا هو تعلقهم الوجداني بتاريخ الممالك الآرامية قبل المسيحية، والتي أشير إليها أعلاه.<sup>٢٣</sup> وفي هذا التعلق، وفي إطلاق صفة "القومية" على الهوية السريانية، "اعتقاد مشترك" بحسب ما قال الحصري، بارتباط بأصل عرقي تاريخي هو العرق الآرامي، فضلاً عن عقد صلة عرقية تاريخية بين "مَنْ هم" اليوم سريان، و"مَنْ كانوا" آراميين قبل أكثر من ٢٠٠٠ عام. وهذا الأمر في الحاليتين يتفق تماماً مع الظاهرة المعروفة في صناعة الهوية وأسطرتها. الكاهن نعمة في مقابلة مع موقع كلية بيت لحم للكتاب المقدس يبدأ حديثه بالقول إن السريان يتحدرون من الآراميين في بلاد

بأنه "نقطة التجمع الطائفي للسريان"، فهي تنظم المحاضرات، وتقدّم خدمات اجتماعية، وتساهم في إحياء المناسبات الوطنية وأهمها إعلان الاستقلال وانطلاقة الثورة، والدينية وعلى رأسها احتفالات سبت النور وأحد الشعانين، كما أنها في مرحلة معينة أدت دوراً تربوياً بإصدار مجلة خاصة بالسريان. ويشير جريس إلى أهمية المجموعة الكشفية بدليل أن عرفات اختارها لتكون "حرس الشرف الموقت لفلسطين".<sup>١٨</sup>

أمّا يعقوب شاهين فيشير إلى دور الكنيسة على صعيد اللغة، فيقول: "الكنيسة علمتني الآرامية".<sup>١٩</sup>

ويوضح الكاهن بطرس أن وظيفتها ككنيسة تتضمن "تعليم السريان التمسك بالجزور القومية".<sup>٢٠</sup> وتبدو أهمية اللغة، كمكون رئيسي للهوية السريانية، حاضرة في حديث المبحوثين، فقد شُرع في تعليم اللغة السريانية (الآرامية) عبر تأسيس مدرسة سانت أفرام في بيت جالا في سنة ٢٠٠٣. ٢١. ومع ذلك يجب الإشارة إلى أن اللغة السريانية محصورة حتى اللحظة في الطقوس الدينية أكثر ممّا هي في الحياة اليومية للسريان، مع وجودها في حيز العائلة بنسب قليلة.

أمّا المبحوث الياس بأسوس فتميز بالقول القاطع: "ليس من قومية سريانية، أنا عربي فلسطيني ابن الطائفة السريانية." فهو بنفسه وجود قومية سريانية يؤكد الهوية الطائفية لا الإثنية للسريان، داعماً موقفه بالتأكيد: "أين لغتهم؟ أين ثقافتهم؟ أي هوية إذا كان الخوري تعلم السريانية حديثاً؟"<sup>٢٢</sup> وفي تقديرنا، فإن تعلم الخوري حديثاً للسريانية كلفة، مثلما قال بأسوس، لا ينفي الهوية، بل على العكس يؤكدّها: فأن يتعلم السرياني

حتى لو رغب في ذلك!  
 في الحالة الفلسطينية يتنازع السريان، بحسب ما ظهر في المقابلات مع المبحوثين، شعوران مزدوجان: شعور المجتمع المحلي التلحمي بوجودهم، وشعور بالانتماء، قولاً لا فعلاً، إلى الشعب الفلسطيني.  
 ليس من باب الخطابية العاطفية اعتبار السريان التلحميين جزءاً من المعركة ضد المشروع الصهيوني، فوقائع مشاركة السريان في النضال ضد الاحتلال بيئة ومعروفة: ميلاد شاهين شاب فلسطيني سرياني سقط شهيداً في الانتفاضة الشعبية في سنة ١٩٨٩، وغيره التحق بمقاتلي الانتفاضة في سنة ٢٠٠٠ من خلال حركة "فتح"، والعديد بات أسيراً، وأحد المبحوثين يحتل موقعاً مهماً في جهاز أمني للسلطة الفلسطينية، بينما هند خوري السريانية الفلسطينية عُينت سابقاً وزيرة في السلطة الفلسطينية. ويستذكر يعقوب شاهين: "الشهيد ميلاد شاهين ابن عمي وأكثر من ذلك. سقط شهيداً لأنه فلسطيني يدافع عن وطنه وشعبه".<sup>٢٦</sup> وفلسطينية الشهيد لا تنفي سريانيته، إلا إن تلك الهوية الإثنية اندمجت في لحظة ما بالهوية الوطنية الأشمل فسقط شهيداً. وتجدر الإشارة إلى ما ذكره جريس من رفض سريان بيت لحم "سعي ممول أميركي حاول دمج سريان بيت لحم في مسعى بعض الموارنة من منطقة ٤٨ لإنعاش ما سمّوه الأرامية بدلاً من الهوية الوطنية الفلسطينية. رفضنا ذلك ورفضنا حتى الاجتماع مع هؤلاء من منطقة ٤٨. ومع ذلك يجب تأكيد الاستنتاج التالي في العلاقة بين الهويتين السريانية والفلسطينية، فحواه أنه على غرار العلاقة بين الهويات المتنوعة والمتعايشة في آن واحد، فإن الظروف تؤدي دوراً في طبيعة

الشام، وإنهم ينتمون إلى هذه القومية.<sup>٢٤</sup> وفي هذا "التحدر" إشارة إلى تلك العلاقة المعقدة بالصلة العرقية التاريخية، وإلى أن هذا "التحدر" هو ما أنشأ "قومية" السريان حالياً. ليس هذا فحسب! بل إن "الأخر" في التاريخ السرياني أيضاً، يمتد عبر التاريخ، ويحمل في علاقته مع الـ "أنا" طابع الصراع الجلي. التاريخ السرياني كما يظهر في جميع الدراسات القديمة والمعاصرة يعجّ بالاضطهادات الدينية والإثنية للسريان، منذ الأشوريين، مروراً بالدولة البيزنطية وبعض الحقب الإسلامية، وصولاً إلى التطهير العرقي في سنة ١٩١٥. ولا يمكن التحدث مع سرياني إلا ونراه يتناول حقيقة هذا الاضطهاد، وخصوصاً التطهير العرقي الحديث، فهو، أي الاضطهاد، يمتلك عليه ذاكرته ووجدانه ومشاعره، الأمر الذي يحيلنا على ما تناوله تاجفيل من العلاقة بين الهوية الفردية والهوية الجماعية، إذ يعتقد أن علاقة الفرد بالجماعة تُبنى على أساس "أن العامل الأساسي هنا هو الشعور النفسي لدى كل فرد بالانتماء والمصير المشترك الذي يربط الجماعة بعضهم ببعض" (مكاوي ٢٠٠٢)، وتلك ظاهرة يمكن ببساطة ملاحظتها لدى جميع المجموعات والأقليات المضطهدة، كالفلسطينيين والأكراد والأرمن والشيعية في المشرق العربي، والسود في الولايات المتحدة، على سبيل المثال. وعندما تؤكد هزو: "نحن لا شعورياً لا نستطيع التملص من الهوية"،<sup>٢٥</sup> فهي إنما تشير إلى ذلك الشعور الذي تشكل تاريخياً في ذات السرياني، وامتلك عليه وجدانه بفعل جميع تلك المآسي التي مر بها السريان عبر التاريخ، وتم تناقلها جيلاً بعد جيل، وهو بالتالي لا يمكنه "التملص منه"

عدداً، يلاحظ أن حجم اشتراكهم في النضال ضد الاحتلال أقل بوضوح من حجم مشاركة سريان بيت لحم. ويعتقد باسوس أن "سريان القدس تغلغل اليهود فيهم"،<sup>٣٠</sup> بمعنى أنهم، أي الصهيونيين، نجحوا في دمجهم في المؤسسات الإسرائيلية. وتتفق هزوم مع ذلك فتؤكد بوضوح أن "المجتمع السرياني المقدسي يندمج في المؤسسة الإسرائيلية. السريان اندمجوا في المؤسسات"، وتعبّر عن استغرابها لمدى ذلك الاندماج.<sup>٣١</sup>

## X - الأنا - الآخر المحلي

يؤكد الكاهن بطرس أن نظرة المجتمع المحلي "لا تزال أن السرياني غريب، لاجيء"،<sup>٣٢</sup> ويعتبر أن اعتبار "البعض" السرياني كذلك، لا يعني أن الظاهرة محدودة بدليل تأكدها من طرف أغلب الباحثين، وهي ظاهرة لمسها كاتب هذه الدراسة بملاحظته المباشرة أيضاً. ويعطي الكاهن بطرس مثلاً لذلك بأن السريان حتى اللحظة لا يُعتبرون حارة في بيت لحم،<sup>٣٣</sup> وتلك إشارة إلى عدم الاعتراف بهم شأن الحمايل الأخرى، كمجموعات عائلية يؤخذ رأيها في قضايا المجتمع المحلي، وخصوصاً في تحالفات الانتخابات، وتحديدًا انتخابات المجلس البلدي، فالتعامل كـ "مجموعة" ما هو إلا اعتراف بتمييز يطلبه السريان ولا يقوم به المجتمع التلحمي. أمّا لماذا هذا الموقف السلبي منهم كمجموعة، فإن بطرس يحيله إلى قدرة السريان بعدما وفدوا إلى فلسطين بعد المجزرة على التحول من "فلاحين ولاجئين فقراء إلى ملاكين معروفين".<sup>٣٤</sup> فظاهرة "تحسس" مجتمع محلي ما من "الوافدين" عليه ظاهرة اجتماعية معروفة في

علاقة الاندماج/ التمايز/ الصراع بين الهوية الجزئية (دينية أو قومية أو إثنية)، والهوية الوطنية والقومية الجامعة، ففي لحظة يتصاعد الإحساس بالهوية الجزئية على حساب الهوية الوطنية - بينما في لحظات تصاعد الخطر المشترك تتوارى الهوية الجزئية لمصلحة الهوية الوطنية، وفي الحالتين يبدو الصراع محرك العلاقة؛ فالهوية الوطنية تتعزز بتصاعد النضال ضد الخطر المشترك، مع عدم اختفاء الهوية الجزئية، بينما تخبو الهوية الوطنية وتطل الهويات الجزئية برأسها في لحظات تراجع الهم الوطني العام، وتلك معادلة تصلح لفهم العلاقة بين الهويات في المجتمعات بصورة عامة. ويؤكد عبد الرحمن منيف العلاقة حين يقول: "إن ظهور المذهبية والطائفية وقوتها يتناسب عكسياً مع ظهور التيار الوطني القومي، فحين يقوى الأخير، وفي ظل المعارك الوطنية الحقيقية، فإن التيارات المذهبية والطائفية تتراجع وتضعف. أمّا في حالة غياب هذه المعارك، وفي حال اقتسام المغانم، أو الحفاظ على الامتيازات... فإن التيارات المذهبية تقوى وتشتد" (منيف ٢٠١٣، ص ٧٢)، كما أن هزوم تتفق مع استنتاجنا السابق ومع ما ذهب إليه منيف بالقول في حالة السريان: "تتغير الهويات بحسب الموقع. فجميع الهويات موجودة، لكن في لحظة ما تطفئ هوية على أخرى".<sup>٣٥</sup> ويقول جريس إنه في أثناء التصويت للمرشحين للقب Arab idol، ظهرت بعض الشيء "نزعة محلية بين يعقوب وندن سارعنا إلى وضع حد لها"،<sup>٣٦</sup> مشيراً إلى الفلسطينيين ابن المجموعة الدينية الدرزية أمير دندن. وعند الحديث عن سريان القدس الأقل



هذه الحساسية أنهم - أي التلحميين - يعلمون الأطفال الحساسية، وقد يكون سببها نجاح السريان اقتصادياً<sup>٣٧</sup>، مشيراً إلى أسماء عائلات ناجحة اقتصادياً، مثل كندو ونيسان وعزيزة، على الرغم من محدودية عدد السريان عامة. ووصف جريس لرفض المصاهرة باعتباره "قديماً" يُوْشِرُ إلى تراجع تلك الظاهرة. أما ظاهرة "التكتل" كما عبّر عنها باسوس، فيمكن تفسيرها بما ذهب إليه تاجفيل في العلاقة بين الفرد/الجماعة عند المجموعات البشرية، والتي تستدعي تصوراً مشتركاً يفضي إلى التكتل (مكاوي ٢٠٠٢). ويقرّ الكاهن بطرس بأن التكتل يظل قائماً في الأزمان، وهو ما أكده العديد من السريان والتلحميين من أن السريان التلحميين سريعاً ما يتكتلون في الأزمان، والواحد يسند المجموعة: "بتصير مشكلة مع سرياني، كل السريان بوقفوا معاه"، كما عبّر أحد السريان في دردشة سريعة معه. ولذلك يعبّر الكاهن بطرس بمرارة: "السخرية من السريان تبقى في داخلنا"<sup>٣٨</sup>، وتلك السخرية كفيفة بتعزيز التكتل في أي لحظة تشعر فيها المجموعة بأنها مهددة كمجموعة، لفظاً أو فعلاً. ويمكن ملاحظة هذا التكتل الذي تجاوز حدود المجموعة في بيت لحم ليطال أماكن وجود السريان، في ذلك الحشد المثير الذي أظهره بدعم السرياني يعقوب شاهين للقب Arab Idol الذي فاز به لسنة ٢٠١٧. فبحسب جريس الذي نشط في تنظيم حملة الدعم ليعقوب: "اشتغل السريان آخر يوم بقوة - يعني في التصويت ليعقوب - إذ حصل على ٧٠٠,٠٠٠ صوت، منهم ٩٠٪ من بيت لحم، وجمعنا مئات آلاف الشواكل للتصويت. أهل بيت لحم وقفوا معاه لأنه تلحمي، ولأن أمه

فلسطين، فجميع الوافدين إلى المدينة، أكانوا من الأرياف أم من المخيمات يستشعرون تلك الحساسية التي تنعكس في مواقف ثقافية واجتماعية تجاه الآخر، وهي ظاهرة تتحول في عدة أحيان، وخصوصاً لدى تراجع مظاهر الانتماء الموحد في مواجهة الاحتلال، إلى صراعات لها علاقة بما يستشعره المجتمع المحلي من ضرورة "الدفاع عن الذات/الهوية المحلية" أمام أي تأثيرات "دخيلة" من "الغرباء" ذوي الهويات الأخرى، بما يعنيه هذا من صراعات ثقافية، وأحياناً اقتصادية، بين المجتمع المحلي و"الغرباء". ومع ذلك، ظهر تضارب لدى الباحثين بشأن موقف المجتمع المحلي من السريان. فباسوس مثلاً، يحيل ظاهرة "تكتل السريان"، بحسب ما وصف علاقتهم بالكل الفلسطيني، إلى طابع تربية الأهالي لهم. يقول: "شعب متكتل ومغلق في آن واحد. الأهالي ربوهم هكذا، ويذهب أبعد من ذلك فيقول: "لم نواجه نهائياً أي تمييز"<sup>٣٥</sup> وهو ما يصرح به يعقوب شاهين بوضوح قائلاً: "لا تمييز في بيت لحم"<sup>٣٦</sup>، وإذا كان باسوس وشاهين يعنيان بالتمييز على مستوى المؤسسة الفلسطينية، فإن أحداً لن يختلف معهما، لأن فلسطين بصورة عامة لا تعرف تمييزاً رسمياً تجاه الإثنيات أو المذاهب الدينية مثلاً، لكن على مستوى العلاقة مع المجتمع المحلي التلحمي فإن آخرين من المبحوثين يرون ذلك التمييز مثلما رآه الكاهن بطرس الذي قدّم وقائع عنه، وذكر أن مظهره الأساسي هو عدم اعتبار السريان حارة حتى اللحظة. وقد أكد شكري جريس هذا التمييز بقوله: "هناك نظرة حساسة تجاه السريان، وقيماً كانوا يرفضون الزواج منهم. ويمكن أن يكون سبب



الأربعة للآراميين التي نشأت في المنطقة الواقعة شمال سورية/ جنوب تركيا الحالية، وأن اللون الأحمر الذي يشكل أرضية العلم فيرمز إلى دم المسيح ودماء السريان الذين سقطوا ضحايا إيمانهم عبر التاريخ.<sup>٤٠</sup> واللون الأحمر في التحليل السيميولوجي المتداول في الأدبيات يحيل إمّا على الثورة والضحايا، وإمّا يرمز إلى الرغبات والشهوات الجنسية، وفي حالة العلم السرياني فمن الواضح أن الأحمر يحيل على تاريخ السريان الدموي، وخصوصاً مجزرة سنة ١٩١٥ على يد الأتراك، لتغدو تلك اللحظة محطة مهمة في الرواية التاريخية التي تشكل الهوية الإثنية لهم. فمن جهة يجري الربط تاريخياً، مرة أخرى، بين القمع بمختلف أشكاله على مر العصور في تاريخ متسلسل يكتسب الطابع الدموي المأسوي من الماضي إلى الحاضر، وهو ربط مهم وضروري لتشكيل الهوية كما مر معنا سابقاً، ومن جهة ثانية يُعطى بعداً دينياً لهوية تجمع بين الإثنية والمذهبية. ويبدو لافتاً الربط الذي يقوم به الكاهن بطرس بين دماء المسيح ودماء السريان عبر العصور، إذ إن دماء المسيح، بحسب المعتقد المسيحي، هي عربون إلهي قدّمه المسيح لخلاص البشرية من خطاياها وشورها ومآسيها، وقد ارتبطت في الحالة السريانية

تلحمية وليست سريانية. السريان في أميركا والسويد أدوا دوراً جيداً أيضاً. لم نحول التصويت إلى طائفي، فيعقوب شخصيته محبوبة، وتقدّمه كان ينعش موقع السريان.<sup>٣٩</sup> إن تكتل سريان أميركا والسويد خلف يعقوب، والثانية فيها أعداد ضخمة من السريان، يدل على سيادة التضامن والمشاعر المشتركة لدى السريان بغض النظر عن موقعهم الجغرافي، فالهوية توحدهم. ومع ذلك لم يغرق السريان بحسب ما أكد جريس في النزعة الطائفية، مع أن النزعة المحلية تظهر في الحديث عن أصول أمه التلحمية، أمّا الأرقام، سواء أرقام التصويت أو حجم المجموع للدعم، فتُظهر مدى التضامن و"التكتل" بالمعنى الإيجابي لدعم يعقوب.

ومع ذلك يبدو أن الحساسية بدأت تتراجع بسبب علاقات المصاهرة التي أخذت تتزايد، والتنشئة التي شرعت تأخذ طابعاً مختلفاً عمّا سبق، الأمر الذي عزز الاندماج بين السريان والتلحميين. إن التناقض في وصف العلاقة بين السريان والتلحميين مرده الأساسي، على ما نعتقد، إلى تلك المرحلة الانتقالية التي تطبع العلاقة: الانتقال من الحساسية تجاه السريان، إلى انتفاء تلك الحساسية.

## XI - سوسيولوجيا العلم

### السرياني: التاريخ القديم حاضر في الهوية

إن الاعتقاد بالانتماء إلى القومية الآرامية المعبر عنها بممالك قديمة، يعزز ما ذهب إليه الكاهن نعمة في تحليله للعلم السرياني، من أن النجوم الأربعة تمثل الممالك التاريخية

المسيح، ويرشد المجوس إلى مكان ولادته، واستمرت تلك الرمزية حتى اليوم بطقس النور الخارج من القبر المقدس، ومشاعل طقس سبت النور.

### الاستنتاجات

يمكن تسجيل الاستنتاجات الختامية التالية التي توصل إليها البحث:  
السرّيان، وبحكم كونهم أبناء المنطقة الجغرافية (بلاد الشام)، ليسوا بغربيين عن حضارة هذه المنطقة وثقافتها وتاريخها، بل هم فاعل أساسي في تاريخها وثقافتها وحضارتها وأديانها، الأمر الذي جعل من السهل على السرّيان الاندماج في الهوية الوطنية القطرية للبلاد التي يقيمون فيها، فالسرّيان الفلسطيني فلسطيني بقدر سريانيته، كما السرّيان العراقي والسوري. وتبدو الهوية السريانية بطابعها الثقافي/الديني، هوية إثنية أكثر منها هوية قومية، فغياب الأرض المشتركة المتواصلة عبر التاريخ، وتالياً غياب الاقتصاد الموحد، جعل منها هوية إثنية لا قومية، الأمر الذي عكس نفسه على غياب الحزب السرياني في مجتمعهم المحلي، وغياب أي مطالب ذات طابع قومي استقلالي.

كما أن اندماج السرّيان في الهوية الوطنية الفلسطينية، وتالياً تحمّل عبء الدفاع عن تلك الهوية ومتطلبات النضال ضد الاستعمار الصهيوني، يبدو للباحث طاغياً أكثر من انتمائهم إلى الهوية السريانية، على الرغم من سعيهم الواضح لتأكيد ازدواجية الانتماء، وكذا السعي لتعزيز الهوية السريانية عبر اللغة ونشر الرؤية المشتركة إلى التاريخ وموقع السرّيان منه. وعلى غرار أي هوية

بالذاكرة الجمعية التي تمتلكهم كأفراد ومجموعة إثنية تحتضن أحلاماً إنسانية تتطلع إلى زمن ماضٍ عاش فيه السرّيان في أراضيهم ومزارعهم في مناطقهم الأصلية قبل القمع والاضطهاد والتطهير التركي. إنها ذاكرة جمعية دفينّة تنشد خلاصها كما نشد المسيح خلاص البشرية بدمائه. أمّا اللون الأصفر فيحيله الكاهن بطرس إلى الضوء والذهب للروح القدس<sup>٤١</sup>، وواضح أن الكاهن بطرس يُعطي دلالات دينية لجميع مكونات العلم، وهذا منطقي، ومع ذلك يمكن الإشارة إلى نقطتين: الأولى، يبدو اللون الأصفر على شكل نسر أو صقر، بينما تبدو الشعلة كأنها رأسه، وهو ما ربما يرمز إلى مكانة النسر/الصقر/الطير بصورة عامة في الميثولوجيا القديمة، ويمكن ربطها برمزية العنقاء أيضاً، وقد تحولت إلى رموز معروفة في حضارات ما بين النهرين والنيل أيضاً، ومقترحة للنصوص الشعرية والدينية والطقوس والرايات والنقوش والرسوم... وهي لدى العديد من الباحثين الميثولوجيين ترمز إلى الرغبة الدفينّة لدى الإنسان في التحرر والانعتاق والطيران بعيداً عن واقع مأسوي في الحياة اليومية (السائح)،  
٤/١١/٢٠١٦). فالسرّيان، وباعتبارهم أبناء تلك المنطقة الجغرافية التي تعجّ برموز الطير والطيران، كانوا برموزهم ينسجمون مع دلالات تلك الرموز، ويستعيدونها عبر التاريخ حتى اللحظة الراهنة. ومرة أخرى نرى التاريخ يقتحم بقوة تشكيل الهوية الإثنية. أمّا الشعلة/النور/النار فرمزية متجذرة في التراث المشرقي بتأثير الزرداشية/المجوس، وقد حوت الرواية المسيحية تلك الرمزية حين ظهر نجم مضيء في السماء يبشّر بميلاد

تعزيز محددات الهوية.  
وأخيراً فإن الكنيسة، وفي ظل غياب الدولة  
والحزب السياسي، تؤدّي الدور المركزي في  
السعي لتعزيز ركائز الهوية السريانية  
وبلورتها عبر سياسات هوية تشكو ضعف  
الإمكانات والوسائل، الأمر الذي يجعلنا  
نتوقع ما توقعه الكاهن بطرس من أن  
"السريان آخذون في الانصهار"، مع بقاء  
الركائز المحددة أعلاه كهوية ثقافية  
محصورة بين الأفراد، ولا تعكس حالة عامة  
لدى السريان من حيث التأثير في المحيط. ■

محلّية، فإن السريانية تطفو على السطح في  
لحظة، وتخبو في لحظة أخرى، لكن في  
النهاية تميل ازدواجية الانتماء بشكل أقوى  
إلى مصلحة الاندماج في الهوية الوطنية  
الفلسطينية.

إن ركائز الهوية السريانية تبدو محددة  
بشكل خاص بعاملين: اللغة من جهة،  
والتمسك بروايتهم التاريخية من جهة أخرى،  
وتحديداً رواية القمع والتطهير التركي لهم  
التي تحتل مكانة الصدارة. ولعل كونها رواية  
تعكس حالة الصراع هي التي تدفع في اتجاه

## المصادر

- ١ لمزيد من الاطلاع على النقاش الدائر حول مرحلة تشكل الهوية الفلسطينية انظر: وسام رفيدي، "ما بعد أوسلو: إشكاليات أمام الهوية الوطنية"، في مجموعة مؤلفين، "الهوية الفلسطينية إلى أين؟" تحرير شريف كناعنة (رام الله: مركز دراسات التراث والمجتمع الفلسطيني في جمعية إنعاش الأسرة، ٢٠٠٨) ص ١٦٩ - ١٩٠.
- ٢ بشأن إرنست غيلنر، "الأمم والقومية"، ترجمة مجيد الراضي (دمشق: دار المدى للثقافة والنشر، ١٩٩٩). انظر عبد الرحيم الشيخ، "الهوية الثقافية الفلسطينية.. المثال، والتمثيل، والتماثل"، في "التجمعات الفلسطينية وتمثلاتها ومستقبل القضية الفلسطينية - المحور الأول: الفلسطينيون.. الهوية وتمثلاتها" (رام الله: المركز الفلسطيني لأبحاث السياسات والدراسات الاستراتيجية/مسارات، ط ١، ٢٠١٣)، ص ٦٩ - ١٤٣.
- ٣ للتعلم في هذه النقطة يمكن الرجوع إلى: أسعد غانم ومهند مصطفى، "الفلسطينيون في إسرائيل: سياسات الأقلية الأصلية في الدولة الإثنية" (رام الله: المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية/مدار، ٢٠٠٩). وفي هذا السياق تُعدّ قصيدة محمود درويش المعروفة "سجل أنا عربي" رداً على تلك السياسة بتأكيد الهوية القومية العربية الجامعة.
- ٤ ليس إخراج اليهود من التكوين إنكاراً لوجود يهود فلسطينيين في التاريخ الفلسطيني، أو التاريخ العربي عامة، لكننا هنا نتناول تلك التكوينات في العلاقة مع المشروع الصهيوني، إذ اتخذ اليهود الفلسطينيون موقفاً داعماً ومنحازاً إلى المشروع الصهيوني منذ ما قبل نشوء الكيان الصهيوني، ومع ذلك يسجّل لليهود السامريين في نابلس، دورهم في مقاومة الاحتلال، فقد كان منهم سجناء لدى الاحتلال.
- ٥ يجب الاعتراف بأن المشروع الصهيوني عبر الحكومة الإسرائيلية نجح في جذب مجموعات كبيرة من الدروز الفلسطينيين إلى مصلحته عبر اتفاقية "حلف الدم" التي عقدها في سنة ١٩٥٦ مع شيخ عقل الطائفة الدرزية أمين طريف، والتي بموجبها صار الدروز يخدمون في جيش الاحتلال في مواجهة

شعبهم. وعلى الرغم من ذلك، فإنه يجب الإشارة إلى حقيقة التنامي الواضح في الأعوام الأخيرة لظاهرة رفض الدروز الخدمة في الجيش تأكيداً لعروبيتهم وانتمائهم إلى شعبهم الفلسطيني.

يورد برنارد ساببلا الأرقام التالية الدالة على واقع التطهير العرقي الذي أصاب المسيحيين، كمثال نوره لتعرض مختلف التكوينات الاجتماعية لتداعيات المشروع الصهيوني، مع اعتقادنا بوجود بعض الخلل في تفصيلات الأرقام: "في العام ١٩٤٨ قبل الحرب العربية - الإسرائيلية الأولى وقيام إسرائيل على الأرض الفلسطينية، كان هناك ١٤٥ ألف مسيحي، أي ٧,٦٪ من مجموع السكان الذين وصل عددهم آنذاك إلى ١,٩٠٨,٧٢٤ نسمة. وبقي ٣٤ ألف مسيحي فيما يُعرف بإسرائيل، بينما تحول ٦٠ ألفاً، أي ٤١,٣٪ من المسيحيين الفلسطينيين إلى لاجئين [...] وفي الأراضي الفلسطينية اليوم، فإن ٣٠٪ من المسيحيين هم من اللاجئين. وبحسب المؤرخ الفلسطيني سامي هداوي، فإن أكثر من نصف مسيحيي القدس هُجروا من بيوتهم في القدس الغربية."

انظر: برنارد ساببلا، "الحضور المسيحي في فلسطين"، "السفير - ملحق فلسطين" (بيروت)، تشرين الأول/أكتوبر ٢٠١١، في الرابط الإلكتروني التالي:

<http://palestine.assafir.com/Article.aspx?ArticleID=2020>

٧ مقابلة مع الكاهن بطرس نعمة، كاهن كنيسة العذراء للسريان الأورثوذكس في بيت لحم، أُجريت بتاريخ ٢٠١٦/٩/٢٠ في بيت لحم.

٨ للمزيد انظر: سمير عبده، "السريان قديماً وحديثاً"، مراجعة عواد علي (عمان: دار الشروق، ١٩٩٧): وفي السياق نفسه يعدد مخول ٢٠ مدرسة و ٨ مكاتب سريانية أدت الدور الأبرز في الحضارة العربية الإسلامية، وخصوصاً في الفترتين الأموية والعباسية. انظر: موسى مخول، "الحضارة السريانية حضارة عالمية: دور السريان في النهضة العربية الأولى، العصر الأموي والعصر العباسي" (بيروت: بيسان للنشر والتوزيع والإعلام، ط ١، ٢٠٠٩).

٩ للتعلم في هذا التفسير لمقولة "حضارة عربية إسلامية" وموقع الدين منها، انظر: حسين مروة، "النزعات المادية في الفلسفة العربية الإسلامية" (بيروت: دار الفارابي، ط ٦، ١٩٨٨).

١٠ لمزيد من التفصيلات، انظر: عبده، مصدر سبق ذكره، ص ٤١ - ٤٥.

١١ لمزيد من المعلومات التاريخية عن حياة السريان انظر: ديونوسيوس دي تلمحري، "الوقائع التاريخية السريانية من سنة ٥٨٧-٧٧٤م"، ترجمة بطرس قاشا، مراجعة وتقديم سهيل قاشا (بيروت: المنظمة العربية للترجمة، ط ١، ٢٠١٦). فالكتاب يتضمن تسجيل الوقائع اليومية لحياة السريان في بعض من مراحل الدولتين الأموية والعباسية، وتناولاً لبعض مظاهر القمع والاضطهاد، مع ملاحظة حجم الأسطورة الضرورية لصوغ هوية ما كما أشرنا سابقاً، في تسجيل بعض الوقائع. وكمثال للأسطورة، انظر ص ٣٨ - ٣٩، التي جاء فيها أن "الأسقف الوقور مار حبيب" (أسقف الرها) يقوم بإحياء راهب من الموت ليعرف منه مكان كمية من الذهب تركها مسلم لديه كأمانة!

١٢ موقع كلية بيت لحم للكتاب المقدس. مقابلة مع الكاهن بطرس نعمة كاهن الكنيسة السريانية الأورثوذكسية في بيت لحم، أُجريت بتاريخ ٢٠١٧/٤/١٢. انظر الرابط الإلكتروني التالي:

<https://tinyurl.com/y7byn7jj>

١٣ مقابلة مع الكاهن بطرس نعمة، مصدر سبق ذكره.

١٤ ومع ذلك، فإن السريان السوريين، وبعد تهديد وجودهم كمجموعة إثنية/دينية من طرف المجموعات التكفيرية، قاموا بتأسيس فريق مسلح باسم المجلس العسكري السرياني، يُعد اليوم جزءاً من "قوات سورية الديمقراطية" المعروفة باسم "قسد"، والتي تقاتل في المنطقة الشمالية الشرقية من سورية حيث يوجد العديد من السريان، وخصوصاً في منطقة الجزيرة المعقل التاريخي للسريان السوريين،

- علماً بأن الفريق المهيمن على تلك القوات، كما هو معروف، هو الأكراد السوريون المنتمون إلى حزب الاتحاد الديمقراطي القريب من حزب العمال الكردستاني. وتضم "قسد" تنويعاً من العرقيات (كرد، وعرب، وتركماني، وأرمني، وسريان)، وهو يعرّف عقيدته بأنها علمانية - فدرالية - ديمقراطية. انظر موقع ويكيبيديا في الرابط الإلكتروني التالي: <https://tinyurl.com/zvnpfve>
- ١٥ هذه المعلومات مستقاة من التجربة السياسية والحزبية للمؤلف واطلاعه على مختلف الاتجاهات والتيارات السياسية والحزبية الفاعلة في فلسطين.
- ١٦ مقابلة مع إيرين هزو، نائب رئيس جامعة بيت لحم للشؤون الإدارية، وهي من سريان القدس. تمت مقابلتها في تاريخ ٢٠١٧/٤/٣ في بيت لحم.
- ١٧ مقابلة مع الكاهن بطرس نعمة، مصدر سبق ذكره.
- ١٨ مقابلة أولى مع شكري ميشيل جريس، وهو طبيب أسنان سرياني من بيت لحم. تمت مقابلته بتاريخ ٢٠١٧/٨/١٧ في بيت لحم.
- ١٩ مقابلة مع يعقوب يوسف شاهين، وهو فنان معروف حاز لقب محبوب العرب لسنة ٢٠١٧ (Arab Idol)، وممثل فلسطين في العديد من المهرجانات العالمية. تمت المقابلة بتاريخ ٢٠١٦/١١/٢٨ في بيت لحم.
- ٢٠ مقابلة مع الكاهن بطرس نعمة، مصدر سبق ذكره.
- ٢١ موقع كلية بيت لحم للكتاب المقدس، مصدر سبق ذكره.
- ٢٢ مقابلة مع الياس باسوس، وهو سرياني تلحمني عقيد في جهاز الأمن الوقائي الفلسطيني. تمت المقابلة بتاريخ ٢٠١٦/٨/١٩.
- ٢٣ المجموعة الإثنية تجمعها هوية ثقافية تاريخية تتشكل برواية تاريخية وشعور مشترك، وتؤدي اللغة دوراً في نقلها وتعزيزها للأجيال، بينما المجموعة القومية تتطلب فوق ذلك كله وحدة الأرض والاقتصاد المشترك، وتعبّر عن نفسها بكيان سياسي (دولة)، إما كمطلب، كحالة الأكراد مثلاً، وإما كحقيقة، شأن القوميات الحديثة.
- ٢٤ موقع كلية بيت لحم للكتاب المقدس، مصدر سبق ذكره.
- ٢٥ مقابلة مع إيرين هزو، مصدر سبق ذكره.
- ٢٦ مقابلة مع يعقوب يوسف شاهين، مصدر سبق ذكره.
- ٢٧ مقابلة أولى مع شكري ميشيل جريس، مصدر سبق ذكره.
- ٢٨ مقابلة مع إيرين هزو، مصدر سبق ذكره.
- ٢٩ مقابلة أولى مع شكري ميشيل جريس، مصدر سبق ذكره.
- ٣٠ مقابلة مع الياس باسوس، مصدر سبق ذكره.
- ٣١ مقابلة مع إيرين هزو، مصدر سبق ذكره.
- ٣٢ مقابلة مع الكاهن بطرس، مصدر سبق ذكره.
- ٣٣ "الحارة" في بيت لحم، بحسب المعتمد والمتداول، تعني "حمولة"، فعندما يقال إن في بيت لحم ٧ حارات، فهذا يعني ٧ حائل. ومع ذلك يوجد جدل بشأن هذه النقطة، فهناك من يعد بيت لحم ٩ حارات منها حارة السريان، لكن الواضح هنا هو أن الإشارة هي إلى التمثيل السياسي لا البعد الاجتماعي.
- ٣٤ مقابلة مع الكاهن بطرس نعمة، مصدر سبق ذكره.
- ٣٥ مقابلة مع الياس باسوس، مصدر سبق ذكره.
- ٣٦ مقابلة مع يعقوب يوسف شاهين، مصدر سبق ذكره.
- ٣٧ مقابلة أولى مع شكري ميشيل جريس، مصدر سبق ذكره.

- ٣٨ مقابلة مع الكاهن بطرس، مصدر سبق ذكره.
- ٣٩ مقابلة ثانية مع شكري ميشيل جريس، تمت بتاريخ ٢٠١٧/٦/١ في بيت لحم.
- ٤٠ موقع كلية بيت لحم للكتاب المقدس، مصدر سبق ذكره.
- ٤١ المصدر نفسه.

## المراجع

### بالعربية

- أبو دحو، رلى (٢٠١٤). "الحركة الفلسطينية الأسيرة ١٩٦٧ - ١٩٩٢: النضال من أجل الهوية الوطنية". رسالة ماجستير غير منشورة ضمن برنامج الديمقراطية وحقوق الإنسان. بير زيت: جامعة بير زيت.
- التوسير، لويس وجورج كانجيليم (١٩٨١). "دراسة لا إنسانية". ترجمة سهيل القش. بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع.
- بركات، حليم (٢٠٠٠). "المجتمع العربي في القرن العشرين: بحث في تغير الأحوال والعلاقات". بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ط ١.
- بشارة، عزمي (٢٠٠٩). "أن تكون عربياً في أيامنا". بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.
- — (٢٠٠٨/٤/٢٤). "حول تحديات تجديد الفكر القومي العربي". موقع "تورس"، في الرابط الإلكتروني التالي: <https://www.turess.com/alfajrnews/4346>
- بورديو، بيير (٢٠١٢). "التلفزيون وآليات التلاعب بالعقول". ترجمة وتقديم درويش الحلوجي. دمشق: دار كنعان.
- الحصري، ساطع (١٩٨٥). "آراء وأحاديث في الوطنية والقومية". بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.
- دي تلمحري، ديونوسيوس (٢٠١٦). "الوقائع التاريخية السريانية من سنة ٥٨٧ - ٧٧٤م". ترجمة بطرس قاشا. مراجعة وتقديم سهيل قاشا. بيروت: المنظمة العربية للترجمة.
- ساند، شلومو (٢٠١١). "اختراع الشعب اليهودي". ترجمة سعيد عياش. عمان: الأهلية للنشر والتوزيع: رام الله: المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية/مدار.
- السائحي، رضوان (٢٠١٦/١١/٤). "دلالات الطير في الميثولوجيا ورمزية الطيران في الحياة اليومية". موقع "الصدى"، في الرابط الإلكتروني التالي: <http://elsada.net/20795>
- السقا، أباهر (٢٠١٣). "الهوية الاجتماعية الفلسطينية.. تمثلاتها المتشظية وتداخلاتها المتعددة. في التجمعات الفلسطينية وتمثلاتها ومستقبل القضية الفلسطينية - المحور الأول: الفلسطينيون.. الهوية وتمثلاتها". رام الله: المركز الفلسطيني لأبحاث السياسات والدراسات الاستراتيجية/مسارات، ط ١، ص ٣٩ - ٦٣.
- شرابي، هشام (٢٠٠٠). "النظام الأبوي وإشكالية تخلف المجتمع العربي". بيروت: دار نلسن للنشر.
- الشيخ، عبد الرحيم (٢٠١٣). "الهوية الثقافية الفلسطينية.. المثل والتمثيل والتمائل". في "التجمعات الفلسطينية وتمثلاتها ومستقبل القضية الفلسطينية - المحور الأول: الفلسطينيون.. الهوية وتمثلاتها". رام الله: المركز الفلسطيني لأبحاث السياسات والدراسات الاستراتيجية/مسارات، ط ١، ص ٦٩ - ١٤٣.
- عبده، سمير (١٩٩٧). "السرّيان قديماً وحديثاً". مراجعة عواد علي. عمان: دار الشروق.
- غانم، أسعد ومهند مصطفى (٢٠٠٩). "الفلسطينيون في إسرائيل: سياسات الأقلية الأصلية في الدولة

- الإثنية". رام الله: المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية/مدار.
- كناعنة، شريف (٢٠١١). "دراسات في الثقافة والتراث والهوية". رام الله: المؤسسة الفلسطينية لدراسة الديمقراطية/مواطن.
  - مجموعة من المؤلفين. "الهوية الفلسطينية إلى أين؟" تحرير شريف كناعنة. رام الله: مركز دراسات التراث والمجتمع الفلسطيني في جمعية إنعاش الأسرة، ٢٠٠٨.
  - مخلول، موسى (٢٠٠٩). "الحضارة السريانية حضارة عالمية: دور السريان في النهضة العربية الأولى، العصر الأموي والعصر العباسي". بيروت: بيسان للنشر والتوزيع والإعلام، ط ١.
  - مروة، حسين (١٩٨٨). "النزعات المادية في الفلسفة العربية الإسلامية". بيروت: دار الفارابي، ط ٦.
  - المعجم الوسيط (١٩٩٨). القاهرة: مجمع اللغة العربية، ط ٣.
  - مكاي، إبراهيم (٢٠٠٢). "الحركة الطلابية الفلسطينية في الداخل كمدرسة لبلورة الهوية القومية". "مجلة كنعان"، العدد ١٠٨.
  - منيف، عبد الرحمن (٢٠١٣). "القومية والهوية في الثورة العربية". في "الهوية وقضاياها في الوعي العربي المعاصر". تحرير وتقديم رياض زكي قاسم، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ط ١.

#### بالإنجليزية

- Anderson, Benedict (1991). *Imagined Communities: Reflections on the Origin and Spread of Nationalism*. London; New York: Verso.
- Hobsbawm, Eric John Ernest. (1992). *Nations and Nationalism since 1780: Programme, Myth, Reality*. Cambridge: Cambridge University Press.

#### مواقع إلكترونية

- كلية بيت لحم للكتاب المقدس. مقابلة مع الكاهن بطرس نعمة كاهن الكنيسة السريانية الأورثوذكسية في بيت لحم، أجريت بتاريخ ١٢/٤/٢٠١٧. انظر الرابط الإلكتروني التالي:  
<https://tinyurl.com/y7byn7jj>
- وكالة الأنباء والمعلومات الفلسطينية "وفا". "أصل السريان"، ٢٥/٥/٢٠١٧. في الرابط الإلكتروني التالي:  
<http://info.wafa.ps/atemplate.aspx?id=5063>

#### المقابلات

- مقابلة مع الياس باسوس، وهو سرياني تلحمني عقيد في جهاز الأمن الوقائي الفلسطيني. تمت المقابلة بتاريخ ١٩/٨/٢٠١٦.
- مقابلة أولى مع شكري ميشيل جريس، وهو طبيب أسنان سرياني من بيت لحم. تمت مقابله بتاريخ ١٧/٨/٢٠١٦ في بيت لحم.
- مقابلة ثانية مع شكري ميشيل جريس، تمت بتاريخ ١/٦/٢٠١٧ في بيت لحم.
- مقابلة مع أيرين هزو، نائب رئيس جامعة بيت لحم للشؤون الإدارية، وهي من سريان القدس. تمت مقابله في تاريخ ٣/٤/٢٠١٧ في بيت لحم.



- مقابلة مع الكاهن بطرس نعمة، كاهن كنيسة العذراء للسريان الأورثوذكس في بيت لحم. تمت المقابلة بتاريخ ٢٠١٦/٩/٢٠ في بيت لحم.
- مقابلة مع يعقوب يوسف شاهين، وهو فنان معروف حاز لقب محبوب العرب لسنة ٢٠١٧ (Arab Idol)، ومثّل فلسطين في العديد من المهرجانات العالمية. تمت المقابلة بتاريخ ٢٠١٦/١١/٢٨ في بيت لحم.

من منشورات مؤسسة الدراسات الفلسطينية

## مراجعة السياسات الإسرائيلية تجاه القضية الفلسطينية

تحرير

جميل هلال ومنير فخر الدين وخالد فراج

٣٨٨ صفحة ١٢ دولاراً

من منشورات مؤسسة الدراسات الفلسطينية

## القدس مفتاح السلام

وليد الخالدي

٢٤٤ صفحة ١٠ دولارات